من تراب الطريق (٤٧٤) وداع على ميقات!(*)

كنت بالإسكندرية حين بدأت خدمتى التمهيدية بالقضاء العسكرى الذى التحقت به آخر سنة ١٩٦٠ لفترة بعد بدايتى فى المحاماة أغسطس ١٩٥٩ ، لأعود منه إليها فى آخر ١٩٧٦ .

كان النظام يقضى آنذاك بسنةٍ أولى فى خدمة التشكيلات العسكرية الميدانية قبل مباشرة العمل القضائى .. بدأتها فى الكتيبة الثانية للمشاة بالعامرية ، قائدًا لفصيلة فى السرية الثانية التى يقودها آنذاك النقيب السورى خالد أرسلان ، وانقطعت أخباره عنى منذ الانفصال الذى أنهى حلم الوحدة الجميل ، وتوليت من بعده قيادة السرية .

وكنا قد حددنا يوم ٢٣ ديسمبر ١٩٦١ للاحتفال بيوم الكتيبة ، وكنت أضطلع فيه بواجبات كثيرة ، لذلك وقعت فى حيرة شديدة حين عدت إلى سكنى مساء يوم ٢٢ ديسمبر فوجدت أسفل باب الشقة خطابًا من المرحوم الأستاذ عبد المجيد الشرقاوى المحامى ، يخطرنى فيه بأن أبى ـ وهما زميلان ـ أصيب بأزمة قلبية ويرغب فى أن أعوده بشبين الكوم .

لم يكن لدى تليفون منزلى ، ولا كان المحمول قد اخترع ، وأشفق أبى من إرسال برقية قَدَّر أنها يمكن أن تقلقنى ، فاغتنم زيارة الأستاذ عبد المجيد الشرقاوى الذى علم منه أنه بطريقه إلى الإسكندرية ، فأعطاه عنوانى وطلب إليه أن يمرّ علىّ لإبلاغى برغبته ، فلما تصادف أن لم يجد

(*) المال ٥/٨/٢٠١٠ .

الأستاذ عبد المجيد أحدًا بالسكن ، اضطر لكتابة الخطاب على عجل وتركه لى من تحت باب الشقة !

تولتنى حيرة شديدة امتزجت بقلقى الأشد على أبى ، ولم يكن أمامى إلاّ أن أذهب إلى الكتيبة فى الصباح لأخطر قائدها آنذاك المقدم عمر خالد ـ يرحمه الله ـ بالظروف الطارئة ، ووجدتنى متحمسًا معه لأعبائى بالاحتفال على وعدٍ بأن أغادر قبل نهايته للسفر إلى شبين الكوم .. فى نحو الرابعة والنصف عصرًا صرفنى قائد الكتيبة مودعًا إياى بتمنياته الطيبة للوالد الذى انطلقت طائرًا إليه .. أسابق الزمن وحاستى السادسة تنبئنى بنذير .. كانت المشكلة أننى فى العامرية على بعد أكثر من ٣٠ كم من الإسكندرية ، ولم تتيسر عربة لنقلى إليها ، فجعلت أتنقل بين المركبات العسكرية التى طفقت أوقف ما يصادفنى منها طوال الطريق الذى رسمته للوصول إلى محطة سيدى جابر لأستقل القطار منها إلى طنطا ومنها بقطار آخر إلى شبين الكوم .. لازلت أذكر خفقات القلق وأمل الوصول طوال هذا الطريق الذى كنت أسابق فيه الزمـن كأنى كنت على ميعاد مقدور !

أخيرا بلغت حجرة نومه ـ يرحمه الله ، وهو على فراشه لم تفارقه سماحته ولا إيمانه ، ولا تهلله وبشاشته وارتياحه لمقدمى .. كان آخر ما تلقيته كتابةً منه ، رسالة أبلغنى فيها بأنه أبلغ أشقائى وشقيقاتى بتحياتى وسلامى لهم ، ولكن ختمها بوصيةٍ لـم تفارقنى قط .. أوصانى فيها بأن أنهض بنفسى فى المستقبل بالسؤال عليهم ، قائلا : «وكن لهم مكان الوالد يا رجائى » .

لم أدر إلاّ وهذه العبارة تراودنى وأنا أجلس إليه أمام فراشه ، مع أنه بدا فى الظاهر بحالةٍ طيبة .. ثم أعقبها كَرْشة نفسٍ ، فاستدعى الدكتور رياض

سركيس لمناظرته ، ولكنه ما إن غادر ، حتى تسارعت أنفاسه وبدت الأمور على غير ما يرام .. فهمت أمى ما لم أفهمه .. أخذت رأسه على كتفها وجعلت تقول له مطمئنةً وقد عرفت أنها سكرات الموت : إنك مؤمن .. وهو يوصيها بأخته التى كانت تقيم معنا قبل أن يتشهد ويسند رأسه الإسنادة الأخيرة على كتفها وعلامات الرضا والطمأنينة مرتسمة على أساريره .. لم أصدق أنه يموت ولا استوعبت أنه مات .. فانطلقت أعدو كالمجنون فى محاولة للحاق بالدكتور الذى كان قد فارقنا من دقائق .. ولكنى أدركت بعد أن أفقت من هول الصدمة أن أحدًا لا يملك إرجاء لحظة الفراق ، مثلما أدركت أن الموت والحياة ليسا خصيمين ، وإنما هما وجها وجود الوجود !

ومع ذلك فمشهد الموت صعب ، وكان قدرى أن أبى ﷺ ، أعز وأحب الناس إلىَّ طرًّا ، هو أول من شاهدت احتضاره من الأحياء .. كان المشهد مشحونا بالعواطف ، ممزوجا بالمشاعر المتباينة بين الخوف والرجاء ، والإشفاق والأمل ، والاعتراض والتسليم .. اجتمع فيه مشهد الاحتضار مع فراق أعز الأحباب .. فكان أثره مزلزلًا لم يفارقنى قط رغم مرّ السنين ، وإن بقيت الذكرى حيّة معطرة لأبٍ زرع ورعى كل ما استطعت به مواجهة الحياة بحلوها ومرّها وأعاصيرها .. تحضرنى عنايته وهو يفارق الحياة بأن يوصى زوجته برعاية أخته .. أما نحن ، فقد كان يدرك ببصيرته أن الأم لا تحتاج إلى وصية لرعاية أولادها ..

تأملت كثيرا فى هذا المشهد الأخير الذى سبقته وصية مكتوبة ظنى أنها كانت على ميقات بترتيب المقادير ، أن يكون الأخ الأسن فى مكان الوالد لإخوته ، ووصية أخرى أخيرة إلى زَوْجِهِ أن تبقى على رعايتها الرءوم لأخته ..

وقد فعلت يرحمهم الله جميعا .. أمـا ميقات الوداع ، فهو الرحلة الطائرة التى قطعتها فى أربع ساعات من العامرية فى جنوب الإسكندرية إلى شبين الكوم فى وسط الدلتا ، ليقدر لى أن أصل فى اللحظة الأخيرة لأكون فى رحابه لحظة الوداع الذى كنت وإيـاه على ميقات مقدور .

*****